محاكمات

للدكتور جواد علي

كان امتحان « الحجاج بن يوسف الثقفي » لأهل العراق في إيمانهم أشد وقعاً عليهم من السيف الذي سلط عليهم في معركة « دير الجماجم » والمعارك التي تلتها .

دخل الحجاج الكوفة بعد إنتصاره على ابن الأشعث فعقد مجلساً عظيما لامتحان الناس ولاذلال أهل الكوفة . فجلس هو في الصدر وأجلس « مصقلة بن كرب بن رقبة العبدي » إلى جنبه وكان خطيباً جهوري الصوت . وقد قال له :

إشتم كل امرىء بما فيه ممن كنا أحسنا إليه ، فاشتمه بقلة شكره ولؤم عهده ، ومن علمت منه عيباً فعيبه بما فيه وصغر إليه نفسه .

وقد أدى هذا الخطيب الشتام عمله على خير ما يكون . فجاء بأقبح الشتائم وأخرج آخر ما عرف من إحداث في هذا الفن . فكان الشخص يعرض عليه وبعد أن ينال نصيبه من الشتم على وجه يرضي الحجاج ، يتعرض إلى مقالة الوالي وتقريعه ، وبعد أن يشبع « الثقفي » نفسه يطلب منه التوبة والإقرار بالكفر بخروجه عليه ونقضه البيعة لأمير المؤمنين وإلا فالقتل .

وكان جرّاس الحجاج يقدمون الناس إليه واحداً واحداً ، وكل رجل ونصيبه . فإما الإهانة والذل والإقرار بالكفر ، وإما الفصل بين الرأس والجسد دون كلام ولا مناقشة . هذا رجل من ختعم قد جاوز الثمانين وقد كان معتزلا للناس جميعاً فيما وراء الفرات جاء به الحظ إلى الحجاج فيسأله الحجاج عن حاله فيجيب :

مازلت معتزلا وراء هذه المنطقة منتظراً أمر الناس حتى ظهرت فأتيت لأبايعك مع الناس .

الحجاج : أمتربص ؟ أتشهد أنك كافر ؟

الرجل : بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر !

الحجاج : إذاً أقتلك .

الختعمي . وإن قتلتني فوالله ما بقي من عمري إلا ظمء حمار وإني لأنتظر الموت صباح مساء .

الحجاج : إضربوا عنقه .

فضربت عنقه أمام الحجاج ، وقريش وأهل الشام يترحمون سراً على هذا الشيخ المسكين .

وهذا كيل بن زياد النخعي ينال حصته من الشتم ثم يعرض على الحجاج فيبادره الثقفي بقوله :

أنت القتص من عثمان أمير المؤمنين ؟ قد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً .

كيل : والله ما أدري على أينا أنت أشد غضباً عليه حين أقاد من نفسه أم على حين عفوت عنه ؟

أيها الرجل من ثقيف : لا تصرف على أنيابك ، ولا تهدم على تهدم الكثيب ، ولا تكثر كثران الذئب . والله ما بقي من عمري إلا ظمء الحمار ، فإنه يشرب غدوة ويموت عشية ، ويشرب عشية ويموت غدوة . أقض ما أنت قاض ، فإن الموعد الله ، وبعد القتل الحساب .

الحجاج : فإن الحجة عليك .

كيل : إن كان القضاء عليك .

الحجاج : بلى كنت فيمن قتل عثمان وخلعت أمير المؤمنين . إقتلوه . فيحتضنه الجلاد أبو الجهم بن كنانة الكلبي ويذبحه أمام سيده الحجاج ذبح النعاج .

ويدخل الحرس برجل آخر من طراز جديد ، من أصحاب الدنيا ، ممن يعرفون كيف يهربون من عزرائيل .

الحجاج : إني أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر .

الرجل : أتعادي عن نفسي ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الأوتاد !

فيضحك الحجاج ، ويشعر في نفسه بأن الرجل قد غلبه ، وإنه ممن لا يستقرون على حال . ويأمر بإطلاق حريته .

ثم يأتي أهل الشام « بأعشى همدان » الشاعر الذي انضم إلى « ابن الأشعث » طمعاً في ماله والذي ينضم إلى كل أحد حتى إلى الشيطان إذا ما وجد عنده المال . الشاعر الذي كان يسير بين

يدى « عبد الرحمن » فى زحفه على العراق للقضاء على الحجاج وهو يقول :

شـــطت نوى من داره بالإيوان
إيوان كسرى ذى القرى والريحان

من عاشق أمسى بزابلستان إن ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضى وكذاب ثان أمكن ربى من ثقيف همدان
يوماً إلى الليل يسـلى ما كان أنا سـخونا للكفور الفتان

الحجاج : إيه يا عدو الله ! أنشدنى قولك : بين الأشج بين قيس ... أنفذ بيتك .

أعشى همدان : بل أنشدك ما قلت لك .

الحجاج : بل أنشدنى هذه .

أعشى همدان ينشده :

أبى الله إلا أن يتم نوره ويطفىء نور الفاسقين فنخمدا
ويظهر أهل الحق فى كل موطن
ويعدل وقع السيف من كان أصيدا

إلى أن يقول :

فكيف رأيت الله فرق جمعهم ومزقهم عرض البلاد وشردا
فقتلاهم قتلى ضلال وفتنة وحيهم أمسى ذليلاً مطردا
ولما زحفنا لابن يوسف غدوة وأبرق منا العارضان وأرعدا
قطعنا إليه الخندقين وإنما قطعناوأمضينا إلى الموت مرصدا

وهى قصيدة تزيد على الثلاثين بيتاً من شر ما تكلم فى ذم أهل العراق وأحسن ما قيل فى مدح الحجاج وأهل الشام حتى اهتزأهل الشام طرباً وصاحوا : أحسن، أصلح الله الأمير . وظن الشاعر أنه قد تغلب على غضب الحجاج بهذه القصيدة ونجا ، وأنه سيعيش . ومن يدرى فلعله كان يأمل هجاء الحجاج من جديد وقد تعود من قبل مدح الناس وهجاءهم فى آن واحد .

الحجاج : لا ، لم يحسن . إنكم لا تدرون ما أراد بها .

يا عدو الله ! إنا لسنا نحمدك على هذا القول إنما قلت تأسف أن لا يكون ظهر وظفر . وتحريضاً لأصحابك علينا وليس عن هذا سألناك . أنفذ لنا قولك : بين الأشج وبين قيس قيس بأذنخ

فينشد أعشى همدان إلى أن يصل إلى قوله :

بخ بخ لوالده ولمولود .

الحجاج : لا والله لا تبخبخ بعدها لأحدأبداً . إضربوا عنقه . فتضرب عنقه . ويفصل رأسه عن جسده وينال جزاء تقلبه وتلونه وهجاء الناس ومدحهم طمعاً فى الدنيا والمال .

ويدخل الحاجب بالأسرى ممن أرسلهم يزيد بن المهلب .

الحجاج : جئنى بسيدهم :

الحاجب : قم يا فيروز ، وكان رجلا غنياً من أصحاب اللايين له ثروة عريضة لا تقدر بثمن :

الحجاج : أبا عثمان ! ما أخرجك مع هؤلاء ؟ فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم !

فيروز : فتنة عمت الناس فكنت فيها .

الحجاج : اكتب لى أموالك .

فيروز : ثم ماذا ؟

الحجاج : اكتبها أول .

فيروز : ثم أنا آمن على دمى ؟

الحجاج : اكتبها ثم انظر .

فيروز : اكتب يا غلام : ألف ألف ألفى ألف وذكر له مبلغاً كثيراً ، وهو يقصد من وراء ذلك إغراء الحجاج ودفع غائلة الموت عنه .

الحجاج : وقد استهونه هذه الأموال : أين هذه الأموال ؟

فيروز : عندى .

الحجاج : أدها .

فيروز : وأنا آمن على دمى ؟

الحجاج : والله لتؤدينها ثم لأقتلنك .

فيروز : والله لا تجمع مالى ودمى .

الحجاج للحاجب : نحه .

الحجاج : ليدخل أسير آخر .

يدخل محمد بن سعد بن أبى وقاص :

الحجاج : إيها ! باطل الشيطان أعظم الناس تيهاً وكبراً . تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتشبه بحسين وابن عمر ثم صرت مؤذناً لابن كناز عبد بنى نصر (يعنى عمر بن أبى العلت) . وأخذ الحجاج عوداً وصار يضرب به رأس محمد حتى أدماه .

محمد : أيها الرجل ملكت فأسجح .

فكف الحجاج يده .

محمد : إن رأيت أن تكتب إلى أمير المؤمنين فإن جاءك عفو كنت شريكاً فى ذلك وإن جاءك غير ذلك كنت قد أعذرت .

يطرق الحجاج ملياً كأنه يفكر فى أمر هام ثم يتغلب عليه طبعه فيخاطب الجلاد :

— اضرب عنقه . فضربت عنقه .

الحجاج : يدعى آخر .

(يدخل عمر بن موسى)

الحجاج : يا عبد المراماة ! أتقوم بالعمود على رأس ابن الحائك وتشرب معه الشراب فى حمام فارس ، وتقول المقالة التى قلت ؟

لتضرب عنقه .

ثم أدخل « ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن سمرة » وكان غلاماً حدثاً فدخل وهو مرتبك خائف :

أصلح الله الأمير ! مالى ذنب ، إنما كنت غلاماً صغيراً مع أبى وأبى لا أمر لى ولا نهى وكنت معهما حيث كانا .

الحجاج : وكانت أمك مع أبيك فى هذه الفتن كلها ؟

الغلام : نعم .

الحجاج : على أبيك لعنة الله .

الحجاج : ليدخل الهلقام بن نعيم :

الحجاج يخاطب الهلقام :

اجعل ابن الأشعث طلب منك ما طلب ، ما الذى أملت أنت منه ؟

الهلقام : أملت أنه يملكنى فيولينى العراق كما ولاك عبد الملك

الحجاج : قم يا حوشب فاضرب عنقه . وليدخل عبد الله ابن عامر .

عبد الله : لا رأت عيناك يا حجاج الجنة إن أقلت ابن اللعين عما صنع .

الحجاج : وما صنع ؟

ابن عامر :

لأنه كاس فى إطلاق أسرته وقاد نحوك فى أغلالها مضراً
وفى بقومك ورد الموت أسرته وكان قومك أدنى عنده خطرا

يطرق الحجاج ملياً وقد وقرت الكلمة فى قلبه . ثم تتغلب عليه روح الانتقام فيقول : وما أنت وذاك ؟

اضرب عنقه ، فتضرب عنقه .

ثم أمر الحجاج بتعذيب « فيروز » بعد أن يئس من الحصول على ثروته وأخذ أمواله . فكان فيما عذب به أن كان يشد عليه القصب الفارسى المشقوق ثم يمر عليه حتى يخرق جسده ثم ينفضح عليه الخل واللح . فلما أحس بالموت قال لصاحب العذاب : إن الناس لا يشكون أنى قد قتلت ، ولى ودائع أموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبداً ، فأظهرونى للناس ليعلموا أنى حى فيؤدوا المال . فأعلم الحجاج ، فقال أظهروه فأخرج إلى باب المدينة . فيروز : أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن أنكرنى فأنا فيروز حصين ؛ إن لى عند أقوام أموالا فمن كان لى عنده شىء فهو له وهو منه فى حل ، فلا يؤدين منه أحد درهماً . ليبلغ الشاهد الغائب .

الحجاج : وقد اغتاظ وهاج لحرمانه من ثروة « فيروز » تضرب عنقه . تضرب عنقه .

وبينما الحجاج فى مجلس من مجالسه إذ بعامر بن شراحيل الشعبى يدخل عليه ، وكان ممن طلبهم الحجاج وأراد قتلهم لأنه كان ممن يحرضون القراء على حرب الحجاج ، وهو القائل فى وسط المعركة :

يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا يأخذ كم حرج من قتالهم ، فوالله ما أعلم قوماً على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجود منهم فى الحكم ، فليكن بهم البدار .

الحجاج متعجباً : الشعبى !! ؟

الشعبى : نعم أصلح الله الأمير .

الحجاج : ألم أقدم البلد وعطاؤك كذا وكذا فزدتك فى عطائك ولا يزاد مثلك ؟

الشعبى : بلى ، أصلح الله الأمير .

الحجاج : ألم آمر أن تؤم قومك ولا يؤم مثلك ؟

الشعبى : بلى ، أصلح الله الأمير .

الحجاج : ألم أعرفك على قومك ولا يعرف مثلك ؟

الشعبى : بلى ، أصلح الله الأمير .

الحجاج : ألم أوفدك على أمير المؤمنين ولا يوفد مثلك ؟

الشعبى : بلى ، أصلح الله الأمير .

الحجاج : فما أخرجك مع عدو الرحمن ؟

الشعبى : أصلح الله الأمير ، خبطتنا فتنة فكنا فيها بأبرار أتقياء ، ولا فجار أقوياء » وقد كتبت إلى يزيد بن أبى مسلم أعلمه

ندامتي على ما فرط مني ومعرفتي بالحق الذي خرجت منه وسألته أن يخبر بذلك الأمير ويأخذ لي منه أماناً فلم يفعل .

الحجاج إلى يزيد : أكذلك يا يزيد ؟

يزيد : نعم أصلح الله الأمير .

الحجاج : فما منعك أن تخبرني بكتابه ؟

يزيد : الشغل الذي كان فيه الأمير .

الحجاج للشعبي : أولا انصرف .

وانصرف الشعبي . وعاش عيشة راضية حتى وافاه أجله المحتوم

وكان سعيد بن جبير (سيد التابعين) ممن انضم إلى حركة ابن الأشعث وحرض القراء والناس على الحجاج وشهد معركة « دير الجماجم » مثل سائر فقهاء العراق أمثال عبد الرحمن بن أبي ليلى وأبو البختري والشعبي وغيرهم . وهو القائل مخاطباً جيش أهل العراق : « قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بغية ويقين ، وعلى آثامهم قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة » .

وكان معروفاً بصلابته وصراحته وعدم مبالاته ، وهو القائل « لا تقية في الإسلام » . ولو استعمل بن جبير شيئاً من المرونة لكان من الناجين بأنفسهم من عقاب الحجاج حتما . غير أنه لم يكن من الراغبين في هذه الدنيا . وقد طلب منه حارسه الذي جاء به من مكة إلى الحجاج أن ينجو بنفسه وأن يهرب والحارس راض في ذلك شاكر ، ولكن ابن جبير لم يقبل أن يكون من الهاربين ولا من الذين يكونون سبباً في نكبة الغير .

ولما مثل بين يدي الحجاج قال له الحجاج : ما اسمك ؟

سعيد : اسمي سعيد بن جبير .

الحجاج : بل شقي بن كسير .

سعيد : أبي كان أعلم باسمي منك !

الحجاج : لقد شقيت وشقي أبوك !

سعيد : الغيب إنما يعلمه غيرك !

الحجاج : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى .

سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك ما اتخذت إلهاً غيرك .

الحجاج : فما قولك في الخلفاء ؟

سعيد : لست عليهم بوكيل .

الحجاج : اختر أي قتلة تريد أن أقتلك !

سعيد : بل اختر يا شقي لنفسك ! فوالله ما تقتلني اليوم بقتلة إلا قتلتك في الآخرة بمثلها !

الحجاج : ليقتل ، فلما ولى ضحك ، فأمر الحجاج برده وسأله عن ضحكه ، فقال : عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك ! فأمر به فذبح ! فلما كب لوجهه قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الحجاج غير مؤمن بالله ، اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بقتله من بعدي ! فذبح واحتز رأسه !

لقد قتل الحجاج ما يزيد على المائة والعشرين ألفاً . ولكنه لم يتأثر بقتل أحد تأثره بقتل سعيد بن جبير . لقد التبس عقل الحجاج كما يقال منذ اللحظة التي شاهد فيها رأس سعيد ينفصل عن جسمه . فلم يذق النوم بعد ذلك فكان يرى في منامه سعيد ابن جبير وهو يقول له : يا عدو الله فيم قتلتني ؟ فكان الحجاج يصرخ ويستغيث قائلا : يا قوم مالي ولسعيد بن جبير؟ كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي . وصدقت نبوءة سعيد فلم يعش الحجاج بعده إلا خمس عشرة ليلة .

أراد الحجاج أن تستقيم الأمور عن طريق الضغط والإكراه وإجبار الشعب على التسليم ، وأبت الأمور أن تستقيم عن هذا الطريق فأفلت الأمر بعد وفاة الحجاج .

(دمشق) **جواد علي**

وزارة الأوقاف

تقبل العطاءات بقسم المخازن والمشتريات لغاية ظهر يوم الاثنين ٢٧/٩/١٩٤٨ عن توريد (ورق طباعة — كارت للأرشيف — ظروف — دبوس نحاس للطرفات) وتطلب المواصفات من خزينة الوزارة نظير ٥٠ مليم .

٢٥٩